التكامل السياقي في قصة إبراهيم
مع ضيفه المُكرمين
(دراسة في الإعجاز البياني)

د.شاكر محمود حسين الأعظميّ

ملخص البحث

يهدف البحث إلى بيان وجه جديد من أوجه الإعجاز البياني للقصة القرآنية عن طريق إجراء التكامل السياقي لها، متخذاً البحث قصة النبي إبراهيمﷺ مع ضيفه المكرمين للوصول إلى الصورة الكاملة للقصة التي ذكرت في ثلاث سور رئيسة، هي: هود، والحجر، والذاريات، ومن المعلوم أنّ من مظاهر إعجاز القرآن أن يذكر القصص في أكثر من موضع من سور القرآن لأسرار بيانية ذكرها كثير من المفسرين وغيرهم، فكما أنّ في تفرق القصة في سور القرآن إعجازًا بيانيًا كذلك في جمعها يظهر للمتدبرين إعجازها البياني. ومن نتائج البحث: يعرف التكامل السياقي بانه هو زيادة إيضاح معنى بجمع آيتين أو أكثر للوصول إلى فهم شمولي لهذا المعنى".

Contextual Integration in Abraham' Story
With His Honored Guest
(A Study in Declarative Miraculousness)

Dr. Shaker Mahmoud Hussein Al-Adhami

Abstract

The research aims to show a new face of the graphic miracles in one of the Qur'anic stories through its contextual integration. The story of Prophet Ibrahim with his honored guests is taken as a model for this research . The full picture of the story is mentioned in three main surahs: Hood, stone and ,Al tharyat. One of the manifestations of the graphic miracles of the Qur'an is to mention stories in more than one surahs . This reason has been mentioned by many of the interpreters and other scholars and researchers . And just as the graphic miracle is manifested by the distribution of the story in different places of the Qur'an so is its collection . One of the results in the research is to coincide the term contextual integration and define it as the clarification of the meaning by combining two or more verses to arrive at a comprehensive understanding of this meaning.

التكامل السياقي
في قصة إبراهيم عليه السلام
مع ضيفه المُكرمين (دراسة في الإعجاز البياني)

أ.م. شاكر محمود حسين الأعظميّ
كلية الإمام الأعظم (رحمه الله) الجامعة

المقدمة

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على النَّبيِّ محمدٍ ﷺ، وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين.

أما بعد...

فممّا لا شكّ فيه أنّ أوجه الإعجاز القرآني قد تنوعت في وقتنا الحاضر على اختلاف مشارب العلماء وقدراتهم، إلّا أنّ الإعجاز البياني الذي بدئ به بتحدي فصحاء العرب وبلغائهم كان ولا يزال التحدي به قائمًا، كيف لا وهو الوجه الذي اتفق عليه علماء الأمّة، وكل يوم يظهر للمتدبرين في آي القرآن الكريم وجه جديد من أوجه الإعجاز البياني، سواء أكان في سوره وآياته أم في كلماته وحروفه، أم في حركاته ورسمه، أم في نظمه وبلاغته، أم في أسلوبه وجرسه، أم في مقاصده وهداياته،... إلخ، كلّها توصل إلى حقيقة واحدة وهي أنّ القرآن كلام الله، وهي حقيقة ثابتة من أول يوم أُنزل فيه القرآن، لكن ما انفكّ المفترون المعاندون الّذين في قلوبهم زيغ على مرّ العصور وكرّ الدهور في نفث سموم شبهاتهم في آي القرآن فهم الذين يتبعون ما تشابه منه طلبًا للفتنة، واتباعًا للهوى، إلّا أنّ القرآن يصدمهم كل يوم بحقائقه، بل أصبح كاشفًا لنيّاتهم الخبيئة وجهلهم المركب كلّما سولت لهم أنفسهم التعرض إليه، وما كان ذلك إلاّ بحفظ الله لكتابه، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[1].

هدف البحث:

يكمن هدف البحث في الوصول إلى وجه جديد من أوجه الإعجاز البياني للقصة القرآنية عن طريق إجراء التكامل السياقي لها، ومن ذلك قصة إبراهيمعليه السلام مع

(١) سورة الحجر:٩.

ضيفه المكرمين للوصول إلى الصورة الكاملة للقصة التي ذكرت في ثلاث سور رئيسة، هي: هود، والحجر، والذاريات، ومن المعلوم أنّ من مظاهر إعجاز القرآن أن يذكر القصص في أكثر من موضع من سور القرآن لأسرار بيانية ذكرها كثير من المفسرين وغيرهم، فكما أنّ في تفرق القصة في سور القرآن إعجازًا بيانيًا كذلك في جمعها يظهر للمتدبرين إعجازها البياني.

فكرة البحث:

إنّ التكامل السياقي هو من تفسير القرآن بالقرآن، وهو من أحسن طرق التفسير وأصحها، عمل به كثير من المفسرين كالإمام الطبري، وابن كثير، والشنقيطي، وغيرهم من الذين يذكرون الآيات المتشابهة للآية المفسَّرة من دون إجراء التكامل بينها، أمّا منهجنا فهو منهج جديد فيه اجتهاد من حيث إنّ الصلة بين الآية والأخرى التي ذكرت في موطن آخر صلة تكميل وتوضيح.

أهمية البحث:

إنّ من ينظر في قصة إبراهيم عليه السلام مع ضيفه في السور الثلاث: هود، والحجر، والذاريات، يلحظ تشابهًا واختلافًا في ألفاظ القصة، أو ذكر بعض الألفاظ في موطن وحذفها من الموطن الآخر الشبيه به، أو ذكر العطف في بعض الجمل وحذفه من الموطن الآخر، أو تقديم بعض الألفاظ على عاملها أو بعضها على بعض أو تأخيرها...إلخ، وقد أجاب عنها المفسرون، وأصحاب كتب المتشابه اللفظي، ومن المعاصرين الدكتور فاضل السامرائي، إلّا أنّهم لم يقصدوا إجراء التكامل السياقي للقصة المفرقة بين السور الثلاث، وكذلك عند من أفرد كتابًا في القصص القرآني من أمثال الدكتور فضل حسن عباس، والدكتور صلاح الخالدي، فهؤلاء جميعًا وجّهوا قسمًا من هذه الفروق، أو بيّنوا المقصود من القصة في الموطن الواحد.

خطة البحث:

اقتضت طبيعة البحث أن يقسم على مقدمة ومبحثين وخاتمة، وهي على النحو الآتي:

- المقدمة: وهي التي بين أيدينا وقد ذكرت فيها هدف البحث وفكرته وأهميته وخطته.

- أمّا المبحث الأول: فقد جعلته في مطلبين أحدهما: أفردته للتعريف بالتكامل السياقي، والآخر: خصصته للتعريف بقصة إبراهيمعليه السلام مع ضيفه في القرآن الكريم.

- أمّا المبحث الثاني: فقد أجريت فيه التكامل السياقي لقصة إبراهيمعليه السلام مع ضيفه المكرمين التي ذكرت في ثلاث سور رئيسة هي: هود، والحجر، والذاريات، وفي سورتين أخريين مكملتين، ذكرتا جزءًا من القصة، هما سورتا: العنكبوت، والصافات، وقد قسّمته على سبعة مطالب.

- أمّا الخاتمة: فقد ذكرت فيها أبرز النتائج التي توصل إليها البحث.

المبحث الأول:

التكامل السياقي، وقصة إبراهيم عليه السلام مع ضيفه المكرمين في القرآن الكريم:

المطلب الأول: التعريف بالتكامل السياقي:

أولًا: لغةً:

قال الخليل: «كمل: كَمَلَ الشيء يكمُل كَمالًا، ولغة أخرى: كَمُلَ يكمُلُ فهو كامل في اللغتين، والكَمالُ: التمام الذي يجزأ منه أجزاؤه، تقول: لك نصفه وبعضه وكَمالُه. وأكملتُ الشيء: أجملته وأتممته»[(١)]، وتابعه في ذلك الأزهري[(٢)]، وابن فارس[(٣)]، والجوهري[(٤)].

دلّ هذا التعريف على أنّ الكمال هو التمام، مما يُشعر بأنّ اللّفظين مترادفتان، لكن هناك مَن فرّق بينهما:

قال أبو هلال العسكري: «الفرق بين الكمال والتمام: أَنّ قَوْلنَا كَمَال اسْم لِاجْتِمَاع أبعاض الْمَوْصُوف بِهِ ...؛ لِأَنّ التَّمام اسم للجزءِ وَالْبَعْض الَّذِي يتم بِهِ الْمَوْصُوف بِأَنَّهُ تَامٌّ»[(٥)].

---

(١) كتاب العين: لأبي عبدالرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو الفراهيدي (ت١٧٠هـ)، تحقيق: د.مهدي المخزومي، د.إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، د.ت:٥: ٣٧٨.

(٢) ينظر: تهذيب اللغة: محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى:٣٧٠هـ)، المحقق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م:١٠: ١٤٨.

(٣) ينظر: معجم المقاييس في اللغة: لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت٣٩٥هـ)، حققه: شهاب الدين أبو عمرو، دار الفكر، بيروت - لبنان، د.ت:٩٠٩.

(٤) ينظر: الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية): لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري (ت٣٩٨هـ)، تحقيق: محمد محمد تامر، وآخرين، دار الحديث، القاهرة - مصر، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م:١٠١١.

(٥) الفروق اللُّغوية: لأبي هلال الحسن بن عبدالله العسكري (ت٤٠٠هـ)، دار الكتب العلمية، تح: محمد باسل عيون السعود، بيروت-لبنان، ٢٠٠٩م:٢٩٤.

وقال الراغب: «كَمَالُ الشيء: حصول ما فيه الغرض منه، فإذا قيل: كَمُلَ ذلك، فمعناه: حصل ما هو الغرض منه، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾[1]. تنبيهًا أنّ ذلك غاية ما يتعلق به صلاح الولد»[2].

وقال الكفوي: «والتكميل يرد على الْمَعْنى التَّام فيكمله، إِذْ الْكَمَال أَمر زَائِد على التَّمام، والتمام يُقَابل نُقْصَان الأَصْل، والكمال يُطَابق نُقْصَان الْوَصْف بعد تَمام الأَصْل، وَلِهَذَا كَانَ قَوْله تَعَالَى: ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾[3] أحسن من (تَامَّة)، لِأَن التَّمام من الْعدَد قد علم، وَإِنَّمَا احْتِمَال النَّقْص فِي صفاتها»[4].

وقال الجبل في المعنى المحوري لـ(كمل): «يمكن أن تقول إنّه تمام جسم الشيء تجمُّعًا (من كم)... وكل ما جاء في القرآن من التركيب فهو من الكمال التمام»[5].

دلّت التعريفات اللُّغوية على الآتي:

أ- أنّ الكمال يدلّ على تمام الشيء، فكلُّ كاملٍ تامٌّ، وليس كلُّ تامٍّ كاملًا.

ب- أنّ الكمال هو جمع للأصول التامة.

ج- أنّ كمال الشيء يدلّ على تحقق الغرض المراد منه.

---

(١) سورة البقرة:٢٣٣.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن: الحسين بن محمد بن المفضل الراغب الأصفهاني، توفي بحدود (٤٢٥هـ)، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، ط/ ٣، دمشق – سوريا، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م:٧٢٦، وينظر: عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (المتوفى:٧٥٦هـ)، المحقق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م :٣: ٤٣٠.

(٣) سورة البقرة:١٩٦.

(٤) الكليات: لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي (ت١٠٩٤هـ)، تحقيق: د. عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ط/ ٢، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م:٢٩٦.

(٥) المعجم الاشتقاقي المؤصّل لألفاظ القرآن: لمحمد حسن حسن جبل، مكتبة الآداب، القاهرة-مصر، ٢٠١٠م: ١٩٢٥.

د- أنّ التمام يدلّ على عدم النقص في الشيء، وأنّه قد استوفى أصوله ومعناه، أمّا كمال الشيء فيكون باكتمال وصفه، أو غرضه المراد منه، فهو أمر زائد على التمام.

ه- الفعل كمل في ماضيه لغتان[1]: الأولى: من (كَمَلَ- يَكْمُلُ) أي: من الباب الأول باب نصَر ينصُر، والأخرى: من (كَمُلَ- يَكْمُلُ) أي: من الباب الخامس باب حسُن يحسُن.

ثانيًا: صيغةً:

التكامل: مصدرٌ للفعل (تكامل) المزيد بحرفين، وهذه الصيغة من أبرز معانيها: التشريك، أو المشاركة[2]، وهذا ما يؤديه التكامل؛ وذلك بجمع الآيات واشتراكها في الوصول إلى منتهى الغاية المرادة من سوق الآيات.

ثالثًا: اصطلاحًا:

بداية أُبيّن أنّ مصطلح "التكامل السياقي" لم يعرفه المتقدمون، والمتأخرون، من مفسرين وغيرهم، وإن كانت تفاسيرهم لا تخلو من وجود بعض الدراسة التطبيقية لهذا المصطلح، كيف لا وهو من أحسن طرق التفسير التي يستعين بها المفسرون ألَا وهي تفسير القرآن بالقرآن.

إنّ هذا المصطلح من المصطلحات المعاصرة التي أفردها الباحث عبد الوهاب رشيد صالح في كتاب سمَّاه "التكامل السياقي دلالة وتفسير"، وكذا الأمر انسحب عليه فلم

(١) قال الجوهري: «[كمل] الكمالُ: التَمامُ، وفيه ثلاث لغاتٍ: كَمَلَ، وكَمُلَ، وكَمِلَ. والكسر أرْدَؤُها»، الصحاح:١٠١١.

(٢) ينظر: الكتاب: عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه (المتوفى:١٨٠هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة-مصر، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨ه-١٩٨٨م:٤: ٦٩، وينظر: شذا العرف في فن الصرف: أحمد بن محمد الحملاوي (المتوفى:١٣٥١هـ)، المحقق: نصر الله عبد الرحمن نصر الله، مكتبة الرشد الرياض، د.ت:٣٤.

يعرّف المصطلح، وانشغل في الدراسة التطبيقية، إلّا أنّه بيّن في تمهيده للكتاب غايته منه التي توضح بعضًا من مفهوم المصطلح فيقول: إنّ موضوع هذا الكتاب له غايتان:

الأولى: كونه منهجًا تفسيريًا على طريقة تفسير القرآن بالقرآن، ولكن ليس على غرار المتّبع لدى الطبري، وابن كثير، والشنقيطي، وغيرهم، بل هو منهج جديد، وفيه اجتهاد، من حيث إنّ الصلة بين الآية والأخرى التي ذُكرت معها، صلة تكميل وتوضيح، وقد يكون من جهة واحدة، أو من الجهتين؛ بمعنى أنّ كلًّا منهما يكمل نقصًا في الأخرى، أو توضّحُ مُبهمًا، أو تفصّيلُ مُجملًا، أو تُقيّدُ مُطلقًا، أو تُخصّصُ عامًا... وهكذا.

والثانية: الدلالة على الترابط العضوي دلالة إعجازية... وهذا الترابط والتناسب بين الآية والتي تكملها في مكان آخر في القرآن قرينة قوية قد ترتقي إلى درجة الدليل على أنّ مُنزّل هذه الآيات قد قصد هذا التوزيع ليكون القرآن مُفسرًا بعضه بعضًا[1].

لكن هناك من عرّفه بقوله: «**هو زيادة إيضاح معنى بجمع آيتين أو أكثر للوصول إلى فهم شمولي لهذا المعنى**»[2]، وهذا التعريف من أوّل المحاولات لوضع تعريف للمصطلح.

وإنّ نظرةً في التعريف تدلّ على أنّه قد سُبِك جيدًا، إذ رُعِيَ فيه الدلالة اللّغوية لمعنى التكامل من جهة: الجمع، وزيادة الوضوح، والغاية منه.

ولي أن أضيف إلى التعريف قيدًا واحدًا، وهو: (تامَّتيْنِ) بعد قوله: (بجمع آيتين)؛ كي لا يفهم أنّ الآية قبل جمعها مع غيرها لم تكن تامّة المعنى في سياقها.

---

(١) ينظر: التكامل السياقي (دلالة وتفسير): دار عمار، عمان-الأردن، عبدالوهاب رشيد صالح أبو صفية، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م:٥-٦.

(٢) التكامل السياقي في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق: طه سبتي إبراهيم، مجلة الأستاذ، ملحق العدد:٢٢٦ المجلد:٢، لسنة٢٠١٨م:٥.

المطلب الثاني: التعريف بقصة إبراهيمعليه السلام مع ضيفه المكرمين في القرآن الكريم:

جاء ذكر هذه القصة في ثلاث سور رئيسة وهي: هود، والحجر، والذاريات، وهناك سورتان ذكرتا جزءًا من القصة، وهما: سورة العنكبوت، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾[1]، وسورة الصافات، قال تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[2]. وفيما يأتي بيان موجز للسور الرئيسة ومحورها.

أولًا: سورة هود ومحورها:

١. جاءت قصة إبراهيمعليه السلام مع الأضياف في سورة هود في الآيات الآتية: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ

---

(١) سورة العنكبوت:٣١-٣٢، السورة مكية على الأرجح، وهي التاسعة والعشرون في ترتيب المصحف، والخامسة والثمانون في ترتيب النزول، ينظر: البيان في عدّ آي القرآن: عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الداني (المتوفى:٤٤٤هـ)، المحقق: غانم قدوري الحمد، مركز المخطوطات والتراث، الكويت، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م:٢٠٢، والبرهان في علوم القرآن: لبدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي (ت٧٩٤هـ)، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، دار الفكر، بيروت-لبنان، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٥م:١: ٢٥٠، والتحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون، تونس، د.ت:٢٠: ١٩٩، ومعارج التفكر ودقائق التدبر: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق-سوريا، الطبعة: الثانية، ١٤٣٥ه-٢٠١٤م:١٥: ٢٠٣

(٢) سورة الصافات:١١٢ السورة مكية بالاتفاق، وهي السابعة والثلاثون في ترتيب المصحف، والسادسة والخمسون في تعداد نزول السور، ينظر: البيان في عدّ آي القرآن:٢١٢، والبرهان في علوم القرآن:١: ٢٤٩، والتحرير والتنوير:٢٣: ٨١، ومعارج التفكر:١١: ٥٢٧.

﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴾ [الآيات:٦٩-٧٦].

٢. سورة هود مكية، نزلت بعد سورة يونس، وقبل سورة يوسف، وقد عُدت الحادية عشرة في ترتيب المصحف، والثانية والخمسين في ترتيب نزول السور[١]، وسميت في جميع المصاحف وكتب التفسير والسنة سورة هود، ولا يعرف لها اسم غير ذلك؛ وذلك لتكرر اسم هود فيها خمس مرات، ولأنّ ما حكي عنه فيها أطول ممّا حكي عنه في غيرها[٢].

٣. محورها: قال البقاعي: «وصف الكتاب بالإحكام والتفصيل، في حالتي البشارة والنذارة المقتضى لوضع كل شيء في أتم محاله وإنفاذه، مهما أريد، الموجب للقدرة على كل شيء»[٣]، وكذا قصة الأضياف التي جاءت في وسط سورة هود، فقد افتتحت بالبشرى لإبراهيم وزوجه، ثم ذُكرت مجادلته في قوم لوط وحرصه على المؤمنين فيها، ثم بيان عاقبة المسرفين، وهذا شان القصص الذي ذكر في هذه السورة وما جاء فيه من محاولة رسل الله وأنبيائه إنقاذ أقوامهم المكذبة من العذاب المحتوم، وهذا شأن النبيّ ﷺ في دعوته لأهل مكة، وقد بيّنت مقدمة سورة هود ذلك، قال تعالى: ﴿ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى

(١) ينظر: البيان في عدّ آي القرآن:١٦٥، والبرهان في علوم القرآن:١: ٢٤٩، والتحرير والتنوير:١١: ٣١١، ومعارج التفكر:١٠: ٢٨٥.
(٢) ينظر: التحرير والتنوير:١١: ٣١١.
(٣) مَصَاعِدُ النَّظَر للإشْرَاف عَلَى مَقَاصِد السُّوَر: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى:٨٨٥هـ)، مكتبة المعارف، الرياض-السعودية، الطبعة: الأولى ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م:٢: ١٧٥.

وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُۥ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ ﴾[1].

ثانيًا: سورة الحجر ومحورها:

١. جاءت قصة إبراهيمعليه السلام مع الأضياف في سورة الحجر في الآيات الآتية: قال تعالى: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الحجر:٥١-٦٠].

٢. سورة الحجر مكية نزلت بعد سورة يوسف، وقبل سورة الأنعام، وقد عُدت الخامسة عشرة في ترتيب المصحف والرابعة والخمسين في ترتيب نزول السور، سمّيت بسورة الحجر لأنّ اسم الحجر لم يذكر في غيرها، ولا يعرف لها اسم غيره[2].

٣. محورها: قال البقاعي: «وصف الكتاب بأنّه في الذروة من الجمع للمعاني، الموضحة للحق من غير اختلاف أصلًا»[3]، وقال سيد قطب: «إبراز طبيعة المكذبين بهذا الدين ودوافعهم الأصلية للتكذيب، وتصوير المصير المخوّف الذي ينتظر الكافرين المكذبين، وحول هذا المحور يدور السياق في عدة جولات متنوعة الموضوع والمجال، ترجع كلها إلى ذلك المحور الأصيل سواء في ذلك القصة، ومشاهد الكون، ومشاهد القيامة،

(١) سورة هود:٢-٣.
(٢) ينظر: البيان في عد آي القرآن:١٧٣، والبرهان في علوم القرآن:١: ٢٤٩، والتحرير والتنوير:١٤: ٥، ومعارج التفكر:١١: ٥.
(٣) مَصَاعِدُ النَّظَرِ:٢: ٢٠٣.

والتوجيهات والتعقيبات التي تسبق القصص وتتخلله وتعقب عليه»[1]، وقال أيضًا عند مطلع مقطع قصة إبراهيم عليه السلام مع ضيفه: "هذا القصص يساق بعد مقدمة: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾[2]، فيجئ بعضه مصدقًا لنبأ الرحمة، ويجئ بعضه مصدقا لنبأ العذاب .. كذلك هو يرجع إلى مطالع السورة فيصدق ما جاء فيها من نذير: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾ ﴾[3]، فهذه نماذج من القرى المهلكة بعد النذر، حل بها جزاؤها بعد انقضاء الأجل .. وكذلك يصدق هذا القصص ما جاء في مطالع السورة في شأن الملائكة حين يرسلون: ﴿ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ ﴾[4]، فتبدو السورة وحدة متناسقة، يظاهر بعضها بعضًا»[5].

ثالثًا: سورة الذاريات ومحورها:

١. جاءت قصة إبراهيم عليه السلام مع ضيفه في سورة الذاريات في الآيات الآتية: قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب، دار الشروق، القاهرة-مصر، ط/ ٣٤، ١٤٢٥ه-٢٠٠٤م:٤: ٢١٢٢.
(٢) سورة الحجر:٤٩-٥٠.
(٣) سورة الحجر:٣-٥.
(٤) سورة الحجر:٦-٨.
(٥) في ظلال القرآن:٤: ٢١٤٦.

﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾ [الذاريات:٢٤-٣٧].

٢. سورة الذاريات مكية بإجماع المفسرين، تسمى «والذاريات» بإثبات الواو، تسمية لها بحكاية الكلمتين الواقعتين في أولها ... وتسمى أيضا «سورة الذاريات» بدون الواو اقتصارًا على الكلمة التي لم تقع في غيرها من سور القرآن، وقد عُدت الحادية والخمسين في ترتيب المصحف، والسابعة والستين في ترتيب نزول السور[(١)].

٣. محورها: قال سيد قطب: «بافتتاحها على هذا النحو، ثم بسياقها كله، تستهدف أمرًا واضحًا في سياقها كله .. ربط القلب البشري بالسماء؛ وتعليقه بغيب الله المكنون؛ وتخليصه من أوهاق الأرض، وإطلاقه من كل عائق يحول بينه وبين التجرد لعبادة الله، والانطلاق إليه جملة، والفرار إليه كلية، استجابة لقوله في السورة: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾[(٢)].. وتحقيقًا لإرادته في عباده: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[(٣)]»،... ثم قال: «وقد وردت إشارات سريعة إلى حلقة من قصة إبراهيم ولوط... وفي الإشارة إلى قصة إبراهيمعليه السلام تلك اللمحة عن المال، كما أنّ فيها لمحة عن الغيب المكنون في تبشيره بغلام عليم، ورزقه وامرأته به على غير ما توقع ولا انتظار... فالقصص – على هذا النحو– مرتبط بموضوعها الأصيل، وهو تجريد القلب لعبادة الله، وتخليصه من جميع العوائق، ووصله بالسماء، بالإيمان أولًا واليقين، ثم رفع الحواجز والشواغل

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: لأبي محمد عبدالحق بن عطية الأندلسي (ت٥٤١هـ)، دار ابن حزم، بيروت – لبنان، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م:١٧٦، وينظر: البرهان في علوم القرآن:١: ٢٤٩، والتحرير والتنوير:١٤: ٥، ومعارج التفكر:١١: ٥.

(٢) سورة الذاريات:٥٠.

(٣) سورة الذاريات:٥٦.

دون الرفرفة والانطلاق إلى ذلك الأفق"[1].

المبحث الثاني:

التكامل السياقي لقصة إبراهيم عليه السلام مع ضيفه:

المطلب الأول: المقطع الأول: إخبار القرآن عن القصة:

في هذا المقطع يعلن القرآن عن القصة وأهميتها وهدفها، الذي ورد في ثلاث سور، وهي على النحو الآتي:

- ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ ﴾ [هود:٦٩].
- ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الحجر:٥١].
- ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ [الذاريات:٢٤].

تضمّنت الآيات الثلاث المعاني الآتية:

أولًا: آية سورة هود:

١. بدأت القصة في سورة هود بـ(واو) الاستئناف[2]، وبتوكيد خبرها، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ﴾. قال الرازي: «ودخلت اللام في «لقد» لتأكيد الخبر»[3]، والاهتمام به[4].

٢. جيء بلفظ المجيء ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ ﴾ دون لفظ الإتيان ليدل على أنّ مجيء الرسل

(١) في ظلال القرآن:٦: ٣٣٧٣-٣٣٧٤.

(٢) ينظر: الجدول في إعراب القرآن الكريم: محمود بن عبد الرحيم صافي (المتوفى:١٣٧٦هـ)، دار الرشيد، دمشق-سوريا، مؤسسة الإيمان، بيروت-لبنان، الطبعة: الرابعة، ١٤١٨ه:١٢: ٣١٠.

(٣) مفاتيح الغيب (التفسير الكبير): أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى:٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٠ه: ١٨: ٣٧١.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير:١٢: ١١٥.

كان مقصودًا حاصلًا بذاتهم، وأنّهم تكلّفوا المجيء لما أُمروا به[1]، وليس دخولهم على إبراهيمعليه السلام مصادفة وإنّما هي مهمة كلّفوا بها مع مهمتهم الأخرى وهي إهلاك قوم لوط.

٣. قوله: ﴿ رُسُلُنَآ ﴾ أي: الملائكة، وهو: «جمع وأقله ثلاثة فهذا يفيد القطع بحصول ثلاثة، وأما الزائد على هذا العدد فلا سبيل إلى إثباته إلّا بدليل آخر»[2]، ونسبهم إليه سبحانه لتعظيم شأنهم وشأن المخبر به.

٤. ﴿ بِٱلْبُشْرَىٰ ﴾، قال الآلوسي: «بِالْبُشْرى للملابسة أي: ملتبسين بالبشرى، والمراد بها: «مطلق البشارة المنتظمة بالبشارة بالولد من سارة لقوله تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ ﴾»[3]، وقال ابن عاشور: «والباء في بالبشرى للمصاحبة لأنّهم جاءوا لأجل البشرى فهي مصاحبة لهم كمصاحبة الرسالة للمرسل بها»[4]. وفي هذا بيان لمقام إبراهيمعليه السلام ورفعة منزلته عند الله بأن أرسل إليه رسله بالبشارة، إذ كان من الممكن أن يوحى إليه بهذا الخبر فهو نبيّ.

ثانيًا: آيتا الحجر، والذاريات:

١. في سورة الحجر قال تعالى: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ أي: «وأخبر عبادي»[5]، والنبأ هو: «خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غَلَبَة ظنّ»[6]، والضّيف: «من مال

(١) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن:٢١٢، والفروق اللُّغوية:٣٤٢.
(٢) مفاتيح الغيب:١٨: ٣٧١.
(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى:١٢٧٠هـ)، المحقق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ:٦: ٢٩٠.
(٤) التحرير والتنوير:١٢: ١١٦
(٥) جامع البيان:١٤:٨٢.
(٦) المفردات:٧٨٨.

إليك نازلًا بك، وصارت الضِّيَافَةُ متعارفة في القِرى»[1]، وهو اسم يقع على الواحد والاثنين والجمع[2]، «وهو هنا اسم جمع؛ ولذلك وصف بالمكرمين»[3]، «وأضيفوا إلى إبراهيم عليه السلام وإن لم يكونوا أضيافًا، لأنّهم في صورة من كان ينزل به من الأضياف، إذ كان لا ينزل به أحد إلّا ضافه»[4]؛ لذا يكنى «أَبَا الضِّيفَانِ»[5]، والمعنى: نبيء عبادي خبرًا عظيمًا ذا فائدة لهم عن ضيف إبراهيم.

٢. في سورة الذاريات قال تعالى: ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ﴾ قال الرازي: «وفائدة هذا الاستفهام التنبيه على جلالة القصة المستفهم عنها، ليكون داعيًا إلى الإصغاء لها والاعتبار بها»[6]، وقال ابن عاشور: «فإن كانت القصة معلومة للنبيِّ ﷺ كان الاستفهام مستعملًا في التعجيب، وإن كان هذا أول عهده بعلمها كان الاستفهام للحث مثل: ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ﴾[7]. والخطاب يجوز أن يكون لكل سامع»[8]، وافتتاح القصة بقوله: ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ ﴾ يفيد بأنه من الأخبار الفخمة المهمة[9].

٣. أمّا في الذاريات فقد انفردت بوصف ضيف إبراهيم بأنّهم مكرمون، قال الرازي: «وإنّما وصفهم بالمكرمين إما لكونهم عبادًا مكرمين كما قال تعالى: ﴿ بَلۡ عِبَادٞ

---

(١) المفردات:٥١٣.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب، أبو جعفر الطبري (المتوفى:٣١٠هـ)، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، الطبعة/ ١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م:١٤: ٨٣.

(٣) التحرير والتنوير:٢٦: ٣٥٧.

(٤) البحر المحيط في التفسير: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى:٧٤٥هـ)، تح: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت-لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ه:٦: ٤٨٤.

(٥) معالم التنزيل في تفسير القرآن: أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي (المتوفى:٥١٠هـ)، تح: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ه:١: ٧٠٥.

(٦) مفاتيح الغيب:٢٦: ٣٧٧.

(٧) سورة الغاشية:١.

(٨) التحرير والتنوير:٢٣: ٢٣١.

(٩) ينظر: التحرير والتنوير:٢٦: ٣٥٧.

﴿مُّكۡرَمُونَ﴾[1] وإمّا لإكرام إبراهيمعليه السلام إيّاهم»[2]، ولحاق سياق الآية يبين ذلك بوضوح، قال ابن القيم: «ولا تنافي بين القولين، فالآية تدلُّ على المعنيين»[3].

٤. أثبتت آية هود وكذا آيتا الحجر والذاريات أنّ الملائكة الرسل الأضياف المكرمين جاءوا إلى إبراهيمعليه السلام على صورة البشر طالبين الضيافة منه.

معنى التكامل السياقي للمقطع الأول: بعد معرفة معنى ودلالة كل آية يمكننا أن نجري التكامل بينها، من المعلوم عند النحويين أنّ الاستفهام (الموجّه للنبيّ ﷺ) له الصدارة في الكلام فتكون آية الذاريات أولًا، ثم آية الحجر التي تأمر النبيَّ ﷺ بعد ذلك بإذاعة النّبأ ذي الفائدة العظيمة ثانيًا، ثم توكيده لأجل تقوية الخبر في ذهن المتلقي ثالثًا، فيكون معنى التكامل السياقي لقوله تعالى جلّ ذكره في الآيات الثلاث على النحو الآتي: (هل أتاك) أي: هل وصل إلى علمك يا محمدﷺ (حديث ضيف إبراهيمعليه السلام المكرمين، نبِّئ عبادي به) أي: الخبر ذو الفائدة العظيمة، (لقد جاءته رسلنا) أي: ملائكتنا الذين نزلوا أضيافًا على إبراهيم بصورة البشر (بالبشرى).

تصور تكامل الآيات قبل تفرقها: ((هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين* نبِّئ عبادي به لقد جاءته رسلنا بالبشرى*)).

المطلب الثاني: المقطع الثاني: دخول الأضياف على إبراهيمعليه السلام:

في هذا المقطع والذي بعده تبدأ المحاورة بين الأضياف من جهة وبين سيدنا إبراهيمعليه السلام وأهل بيته من جهة أخرى، يبتدئ هذا المقطع بدخول الأضياف على

---

(١) سورة الأنبياء:٢٦.

(٢) مفاتيح الغيب:٢٨: ١٧٤.

(٣) جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين (ابن قيم الجوزية) (المتوفى:٧٥١هـ)، المحقق: شعيب الأرناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط، دار العروبة، الكويت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ه- ١٩٨٧م:٢٧١.

إبراهيمعليه السلام، الذي ورد في آيات ثلاث من سور القصة، وهي على النحو الآتي:

- ﴿ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ ۖ ﴾ [هود:٦٩].
- ﴿ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ ﴾ [الحجر:٥٢-٥٣].
- ﴿ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ [الذاريات:٢٥].

تضمّنت الآيات الثلاث المعاني الآتية:

١. بدأت آيتا الحجر والذاريات، دون آية هود بقوله: ﴿ إِذْ ﴾ قال أبو البقاء: «في «إذ» وجهان; أحدهما: هو مفعول; أي اذكر إذ دخلوا. والثاني: أن يكون ظرفا»[(١)]، وقوله: ﴿ دَخَلُوا۟ ﴾ قال ابن القيم: لم» يذكر استئذانهم فَفِي هَذَا دَلِيل على أَنّهﷺ كَانَ قد عرف بإكرام الضيفان واعتياد قراهم فَبَقيَ منزله مضيفة مطروقًا لمن ورده لَا يحْتَاج إِلَى الاسْتِئْذَان، بل اسْتِئْذَان الدَّاخِل دُخُوله وَهَذَا غَايَة مَا يكون من الْكَرم»[(٢)].

٢. بيّنت الآيات الثلاث أنّ الأضياف سلّموا على إبراهيم، إلّا أنّ آيتي الحجر والذاريات بيّنتا أنّ سلامهم كان وقت دخولهم دلّ على ذلك فاء التعقيب في قوله: ﴿ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴾، وفي الكلام إشارة أخرى تدلّ على أنّ سيدنا إبراهيمعليه السلام في حالة استعداد لإكرام مَن يدخل عليه.

٣. ردَّ إبراهيمعليه السلام التحية عليهم في آيتي هود، والذاريات قال تعالى: ﴿ قَالَ سَلَـٰمٌ ﴾ قال ابن القيم: «قوله لهم سلام بالرفع وهم سلموا عليه بالنصب والسلام بالرفع أكمل فإنّه يدل على الجملة الاسمية الدالة على الثبوت والتجدد والمنصوب يدلّ على

(١) التبيان في إعراب القرآن: أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري (المتوفى:٦١٦هـ)، المحقق: علي محمد البجاوي، عيسى البابي الحلبي وشركاه، د.ت:٢: ٧٨٤.
(٢) جلاء الأفهام:٢٧١.

الفعلية الدالة على الحدوث والتجدد فإبراهيم حياهم أحسن من تحيتهم فإنّ قولهم سلامًا يدلّ على سلمنا سلامًا، وقوله سلام أي: سلام عليكم»[1].

٤. دلّ قوله في الذاريات: ﴿ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ أي: «قوم لا نعرفكم، ورفع ﴿ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ بإضمار أنتم»[2]، «فإنّه لما أنكرهم ولم يعرفهم احتشم من مواجهتهم بلفظ ينفر الضيف لو قال أنتم قوم منكرون، فحذف المبتدأ هنا من ألطف الكلام»[3].

٥. لمّا تبيّن لإبراهيمعليه السلام أنّه لا يعرف هؤلاء الضيفان أصابه الوجل، وطوى السياق ردَّ إبراهيم التحية على ضيفه في آية الحجر؛ لأنّه قال بعدها: ﴿ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴾ والوجل: «استشعار الخوف»[4]، الذي يؤدي إلى اضطراب النفس لتوقع حصول مكروه ما؛ لذا «فاتحهم بطلب الأمن»[5]، وهذا لا يناسب ما يدلّ عليه لفظ السلام من السلامة والأمان[6]؛ فجاء ردُّهم ليذهب عنه استشعار الخوف، والحال التي كان عليها، فقالوا: ﴿ لَا تَوْجَلْ ﴾ أمّا ردُّه للسلام فهو مفهوم من القصة في سورتي هود والذاريات.

٦. على الرغم من أنّ الأضياف قد جاءوا على صورة البشر إلّا أنّ آيتي الحجر والذاريات دلّتا على أنّ هيأتهم لم تشابه هيأة الأقوام التي كانت تحيط بسيدنا إبراهيمعليه السلام وقت ذاك، أي: أنّ لهم صورة خاصة، قد يكون فيها زيادة في الحسن والوضاءة والمهابة[7] وما شابه ذلك، ودلّت أيضًا على أنّ سيدنا إبراهيمعليه السلام كان عالمًا بأنساب العرب.

---

(١) جلاء الأفهام:٢٧١.
(٢) جامع البيان:٢٢: ٤٢٥.
(٣) جلاء الأفهام:٢٧١.
(٤) المفردات:٨٥٥.
(٥) التحرير والتنوير:١٤: ٥٨.
(٦) ينظر: جامع البيان:١٢: ٤٣٨
(٧) ينظر: تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (المتوفى:٧٧٤هـ)، المحقق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، ١٤٢٠ه-١٩٩٩م:٧: ٤٢٠.

معنى التكامل السياقي للمقطع الثاني: في الآيات الثلاث كان على النحو الآتي: (إذ دخلوا) أي: واذكر يا محمد وقت دخول رسلنا (عليه) أي: إبراهيمعليه السلام (فقالوا سلامًا قال سلام قوم منكرون) أي: أنا لا أعرفكم من أي قوم أنتم (إنّا) أي: أنا وأهل بيتي (منكم) خاصة (وجلون) أي: استشعرنا الخوف (قالوا لا توجل) أي: لا تخف واطمئن.

تصور الآيات قبل تفرقها: ((إذ دخلوا عليه فقالوا سلامًا قال سلام قوم منكرون* إنّا منكم وجلون* قالوا لا توجل)).

المطلب الثالث: المقطع الثالث: ضيافة إبراهيمعليه السلام:

في هذا المقطع يبدأ إبراهيمعليه السلام بواجب الضيافة الذي اعتاد عليه، ويظهر في سورتي هود، والذاريات على النحو الآتي:

- ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ﴾ [هود:٦٩].
- ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ ﴾ [الذاريات:٢٦-٢٧].

تضمّنت الآيتان المعاني الآتية:

١. دلّ فاء التعقيب في قوله:﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ ﴾ على أنّ إبراهيمعليه السلام أسرع في إكرام ضيفه[١]، أي: فراغ إلى أهله بعد انتهائه من استقبال ضيفه، والروغ في اللغة «يَدُلُّ عَلَى مَيْلٍ وَقِلَّةِ اسْتِقْرَارٍ»[٢]، قال الفراء: فراغ: «رجع إليهم، والروغ وإن كان على هذا المعنى فإنّه لا يُنطق به حتّى يكون صاحبه مُخْفيًا لذهابه أَوْ مجيئه»[٣]، أي: أنّ سيدنا

(١) ينظر: التحرير والتنوير:١٢: ١١٧.

(٢) معجم مقاييس اللغة:٤٣١.

(٣) معاني القرآن: أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الفراء (المتوفى:٢٠٧هـ)، المحقق: أحمد يوسف النجاتي، ومحمد علي النجار، وعبد الفتاح إسماعيل الشلبي، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، الطبعة:

إبراهيمعليه السلام لم يستقر في مكانه بعد انتهائه من تحية الضيف فمال راجعًا إلى أهله في خفية لإعداد الطعام، قال ابن القيم: "والروغان هو الذهاب في اختفاء بحيث لا يكاد يشعر به الضيف وهذا من كرم رب المنزل المضيف أن يذهب في اختفاء بحيث لا يشعر به الضيف فيشق عليه ويستحي فلا يشعر به إلّا وقد جاءه بالطعام بخلاف من يسمع ضيفه ويقول له أو لمن حضر مكانكم حتى آتيكم بالطعام ونحو ذلك مما يوجب حياء الضيف واحتشامه»[1].

٢. دلّ قوله: ﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾، أي: «أنّه ذهب إلى أهله فجاء بالضيافة ... ولم يحتج أن يذهب إلى غيرهم من جيرانه أو غيرهم فيشتريه أو يستقرضه»[2].

٣. لمّا مال إبراهيمعليه السلام إلى أهله بيّن سبحانه فعله في الضيافة في آية هود فقال: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ﴾ أي: أنّه لم يبطئ بمجيئه بل أسرع وتعجل في إحضار الطعام[3]، وفي ذلك دلالة على حسن كرمه للضيف؛ وذلك بأنّ لا يجعلهم ينتظرون الطعام.

٤. قوله في هود: ﴿جَآءَ﴾ أي: رجع إبراهيمعليه السلام إلى ضيفه، دلّ ذلك "على خدمته للضيف بنفسه ولم يقل فأمر لهم، بل هو الذي ذهب وجاء به بنفسه ولم يبعثه مع خادمه وهذا أبلغ في إكرام الضيف"[4]، وكذا في الذاريات إلّا أنّ اللفظ اتصلت به فاء التعقيب ليدل على أنّه لم يكن منشغلًا بعمل آخر غير خدمة ضيفه بأسرع وقت، وكان هذا طبعًا فيه.

الأولى، د.ت:٣: ٨٦.

(١) جلاء الأفهام:٢٧٢.

(٢) جلاء الأفهام:٢٧٢.

(٣) ينظر: معاني القرآن: للفراء:٢: ٢١، والكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٣٨هـ)، تحقيق: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت – لبنان، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م:٤٩٠، وجلاء الأفهام:٢٧٢.

(٤) جلاء الأفهام:٢٧٢.

٥. قال في سورتي هود، والذاريات: ﴿ بِعِجْلٍ ﴾ والعجل: «ولد البقر»[١]، دلّ ذلك على أنّ شيّه لا يستغرق وقتًا أي: ينضج لحمه قبل غيره من أنواع لحوم البقر، و«أنّه جاء بعجل كامل ولم يأتِ ببضعة منه وهذا من تمام كرمه ﷺ»[٢].

٦. قال في آية هود: ﴿ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾، والحنيذ هو: «مَشْوي شَيًّا نَاضِجًا عَلَى الرّضْف، وَهِيَ الْحِجَارَةُ المُحْماة»[٣]، «والشيء أسرع من الطبخ، فهو أعون على تعجيل إحضار الطعام للضيف»[٤]، وقال في آية الذاريات: ﴿ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾. والسَمِين هو ما كان «ممتلئ الجسد بالشحم واللحم»[٥]، أي: «من خيار ماله»[٦].

٧. قال تعالى: ﴿ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ ﴾ على «أنه قربه ولم يقربهم إليه وهذا أبلغ في الكرامة أن يجلس الضيف ثم يقرب الطعام إليه ويحمله إلى حضرته ولا يضع الطعام في ناحية ثم يأمر الضيف بأن يتقرب إليه»[٧].

٨. «ومجيء الفاء لعطف أفعال فراغ، فجاء، فقربه للدلالة على أنّ هذه الأفعال وقعت في سرعة، والإسراع بالقرى من تمام الكرم»[٨].

معنى التكامل السياقي للمقطع الثالث: في الآيتين كان على النحو الآتي: (فراغ إلى أهله) أي: لم يستقر في مكانه بعد ردِّه التحية على الأضياف، فمال إلى أهله لإعداد الطعام (فما لبث) أي: لم يبطئ (أن جاء) أي: رجع إلى ضيفه (بعجل) كامل (حنيذ) أي: مشوي

(١) المفردات:٥٤٩.
(٢) جلاء الأفهام:٢٧٣.
(٣) تفسير القرآن العظيم: لابن كثير:٤: ٣٣٣.
(٤) التحرير والتنوير:١٢: ١١٧
(٥) روح المعاني:١٤: ١٣.
(٦) تفسير القرآن العظيم: لابن كثير:٧: ٤٢١.
(٧) جلاء الأفهام:٢٧٣.
(٨) التحرير والتنوير:٢٦: ٣٥٩.

على الحجارة (سمين) أي: ممتلئ باللحم والشحم، وهو من خيرة ماله (فقربه إليهم) أي: قرب العجل إلى ضيفه ليأكلوا.

تصور الآيات قبل تفرقها:((فراغ إلى أهله فما لبث أن جاء بعجل حنيذ سمين*فقربه إليهم)).

المطلب الرابع: المقطع الرابع: خوف إبراهيمعليه السلام **من الأضياف:**

في هذا المقطع يظهر الخوف على سيدنا إبراهيم**عليه السلام** لأنّ ضيفه لم يأكلوا طعامه، وجاء ذلك في سورتي هود والذاريات، وعلى النحو الآتي:

- ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ﴾ [هود:٧٠].
- ﴿ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ ﴾ [الذاريات:٢٨].

تضمّنت الآيتان المعاني الآتية:

١. دلّت الفاء في قوله ﴿ فَلَمَّا ﴾ في سورة هود على أنّها للتعقيب أي: أنّه حين قدّم الطعام إلى ضيفه «رآهم لم يمدوا أيديهم للأكل» ودلّ الظرف على أنّه انتظر مدّة حتى تأكد من عدم أكلهم فـ﴿ نَكِرَهُمْ ﴾، «والإنكار ضد العرفان»[(١)]، أي: أنّه نكر منهم فعلهم، وهو عدم الأكل[(٢)]؛ لأنّه لا يعلم سبب صدور هذا الفعل منهم، فهم أول الأمر دخلوا عليه كأضياف ثم عندما قدم الطعام لا يأكلون لذا نكر فعلهم هذا؛ ثم نجده يتودد إليهم بلطف لحثّهم على أكل الطعام، وهذا ما بيّنته سورة الذاريات، قال تعالى:﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾. قال ابن القيم: «وهذا عرض وتلطف في القول وهو أحسن من قوله كلوا أو

(١) المفردات:٨٢٣.
(٢) ينظر: روح المعاني:٦: ٢٩٢.

مدوا أيديكم»[1].

٢. لمّا كانت الملائكة لا تأكل ولا تشرب[2]...؛ لذا لم تقرب أيديهم الأكل على الرغم من دعوته لهم، فداخله الخوف، قال تعالى في سورة الذاريات: ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ والوجس هو: «الصوت الخفيّ... والإيجاس: وجود ذلك في النفس»[3]، والخيفة هي: «الحالة التي عليها الإنسان من الخوف»[4]، قال أبو حيان: «وأصل الوجوس الدخول، فكأنّ الخوف دخل عليه»[5]، والمعنى: أنّ سيدنا إبراهيم كان قد دخله الخوف وأصبح متلبسًا به فظهرت علامته من خروج أصوات عند تنفسه، ويحدث ذلك للإنسان عند تسارع نبضات قلبه لفزع أصابه.

٣. قال في هود: ﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ بالواو، وقال في الذاريات: ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ بالفاء، وذلك أنّه في آية هود بدأها بفاء التعقيب فقال: ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰٓ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ ﴾ ولمّا كان هناك فعل قبل وجس إبراهيمعليه السلام، وهو دعوته لضيفه بلطف لأكل الطعام، قال تعالى حكاية عنه: ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ الذي ذكرته آية الذاريات؛ لذا عطف وجسه بالواو التي تفيد مطلق الجمع لا الترتيب[6] فقال: ﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾، أمّا في آية الذاريات فجاء بفاء التعقيب مع الفعل أوجس لأنّ وجس إبراهيمعليه السلام جاء عقيب تلطفه مع أضيافه لحثهم على الأكل.

٤. ثم قال الأضياف لإبراهيمعليه السلام وهو في حالة الخوف: ﴿ لَا تَخَفْ ﴾ جاء

(١) جلاء الأفهام:٢٧٣.
(٢) ينظر: مفاتيح الغيب:١٨: ٣٧٣.
(٣) المفردات:٨٢٣.
(٤) المفردات:٣٠٣.
(٥) البحر المحيط في التفسير:٦: ١٨٠.
(٦) ينظر: الكتاب:١: ٤٣٧.

ذلك في آيتي هود والذاريات، فإن قيل فما الفرق بين قولهم: ﴿ قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ ﴾ ثم قولهم: ﴿ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ ﴾ وأنّ كليهما بمعنى متقارب، قيل له أنّ قوله: ﴿ قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ ﴾ جاء عقب قوله: ﴿ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ ﴾؛ لأنه لم يعرفهم عند دخولهم وسلامهم عليه، قال تعالى حكاية عن إبراهيم: ﴿ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴾، قال الآلوسي: «وأنّ الإنكار المدلول عليه بنكرهم غير المدلول عليه بما في الذاريات فلا إشكال في كون الإنكار هناك قبل إحضار الطعام وهنا بعده»[1]؛ فكان ذلك أول استشعاره للخوف أي: أنّه لم يصل إلى مرحلة دخوله في الخوف التي تحققت بعد امتناعهم عن أكل الطعام على الرغم من دعوته لهم بلطف، فهاهنا أصبح الوجل وجسًا أي: خوفًا مستقرًا في نفسه، ظاهرًا في هيئته ووجهه[2]، فقالوا له: ﴿ لَا تَخَفۡ ﴾.

معنى التكامل السياقي للمقطع الرابع: في الآيتين كان على النحو الآتي: (فلمّا) أي: بعد أن قرب أبراهيم الطعام إلى ضيفه (رأى أيديهم لا تصل إليه) أي: العجل المشوي (نكرهم) أي: لم يعرف فعلهم، وهو عدم الأكل، وهم أضياف (قال ألَا تأكلون) أي: تودد لهم بلطف حاثًّا لهم على أكل الطعام، إلّا أنّهم لم يأكلوا لأنّهم ملائكة (فأوجس منهم خيفة) أي: دخله الخوف وأصبح متلبسًا به (قالوا لا تخف).

تصور الآيات قبل تفرقها: ((فلما رأى أيدهم لا تصل إليه نكرهم قال ألَا تأكلون* فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف)).

المطلب الخامس: المقطع الخامس: بشارة إبراهيمعليه السلام **وزوجه، وحالهما بعدها :**

في هذا المقطع يبشر الأضياف سيدنا إبراهيمعليه السلام وزوجه ويكشفون عن حقيقتهم ومهمتهم التي أُرسلوا بها، وقد وردت في الآيات الآتية:

(١) روح المعاني:٦: ٢٩٢.
(٢) ينظر: الكشاف:٤٩٠.

- ﴿ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [هود:٧٠-٧٣].

- ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الحجر:٥٣-٥٦].

- ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الذاريات:٢٨-٣٠].

تضمنت الآيات المعاني الآتية:

أولًا: إعلان الملائكة عن سبب مجيئهم لإبراهيمعليه السلام وعن مهمتهم التي أرسلوا بها:

لمّا قال ضيف إبراهيم: ﴿ لَا تَخَفْ ﴾ أتبعوا ذلك بما يزيل الخوف عنه[1]؛ لأنّه «لم يعرف أنّهم ملائكة لمجيئهم في صورة البشر، وكان مشغوفًا بإكرام الأضياف»[2]، فقالوا له في آية هود: ﴿ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ وقالوا في آية الحجر: ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ وقال تعالى في آية الذاريات: ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ يتبيّن لنا أنّهم قالوا له قولين أحدهما: أنّهم ملائكة مرسلون إلى قوم لوط، والآخر: فيه البشارة له بالولد، لكن أيّهما أسبق في الذكر، فآيتا هود والحجر ابتدأتا باستئناف[3] الكلام بقوله: ﴿ إِنَّا ﴾ أمّا آية الذاريات فبدأت

(١) ينظر: مفاتيح الغيب:١٨: ٣٧٣.
(٢) البحر المحيط: لأبي حيان:٦: ١٨٠.
(٣) ينظر: روح المعاني:٦: ٢٩٢.

بذكر البشارة بالواو التي تفيد مطلق الجمع وليس الترتيب، وربما كان سبق نزول آية هود يرجح أسبقيتها على آية الحجر، إلّا أنّ السياق القرآني في سورة العنكبوت بيّن أنّهم بشّروه أولًا ثم أعلموه بهلاك قوم لوط ثانيًا قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾. وعليه يكون قوله: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ هو أول القولين قيل لإبراهيمعليه السلام وابتدأت الجملة بالتوكيد مراعاة لحال سيدنا إبراهيمعليه السلام وما كان عليه من الخوف، أي: لا تخف منّا وكن آمنًا فإنّا نبشرك بغلام عليم، وهو إسحاق، يكون نبيًا قال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، فأكدوا هذه البشارة لأمرين أحدهما: لغرض إزالة الروع عنه، قال الآلوسي: «فإن المبشر لا يكاد يحوم حول ساحته خوف ولا حزن كيف لا وهي بشارة ببقائه وبقاء أهله في عافية وسلامة زمانًا طويلًا»[1]، والآخر: لما في أمر بشارته بالولد من الأمور المعجزة بسبب كبر سنه، وسن زوجه مضافًا إليها أنّها عقيم، أمّا في آية الذاريات التي نزلت بعد آية الحجر فإنّها جاءت على الحكاية قال تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ فذكرت البشارة بصيغة الماضي فلم تحتج إلى التوكيد، ثم قالوا في الوقت نفسه في آية هود: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ وابتدأوا الخبر بالتوكيد أيضًا، أي: نعلمك بأنّا رسل ربك أُرسلنا لإهلاك قوم لوط، وعلى هذا يكون المعنى: لا تخف إنّا نبشّرك بولد اسمه إسحاق يكون عليمًا ونبيًّا من الصالحين، ونعلمك أيضًا بأنّا رسل ربك أرسلنا لإهلاك قوم لوط.

ثانيًا: حال إبراهيمعليه السلام وزوجه مع البشارة:

في هذا الجزء من المقطع تتبيّن ردّة فعل إبراهيمعليه السلام وزوجه من البشارة بالولد

(١) روح المعاني:٧: ٣٠٥.

بعد أن بلغا من الكبر عتيًا من حوارهما مع الملائكة، والذي يبدو لي من النظر في سياقات القصة أنّ هذا الحوار قد جرى معهما في وقت واحد.

١. حال زوج إبراهيمعليه السلام مع البشارة:

أ- بعد أن بشّرت الملائكة إبراهيمعليه السلام بإسحاق، رافق ذلك موقف، هو حال زوجه وهي قائمة، قال تعالى: ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ ﴾، قال العكبري: «الجملة حال من ضمير الفاعل في﴿ أُرۡسِلۡنَآ ﴾»[١]، وقال أبو حيان: «والظاهر أنّه حال من ضمير قالوا أي: قالوا لإبراهيم لا تخف في حال قيام امرأته»[٢]، والمعنى: «كانت قائمة من وراء الستر تسمع كلام الرسل وكلام إبراهيمعليه السلام، وقيل: كانت قائمة تخدُم الرسل، وإبراهيم جالسٌ مع الرسل"[٣]، وكلاهما محتمل مراده.

ب- ثم قال تعالى: ﴿ فَضَحِكَتۡ ﴾ وذكر في سبب ضحكها أقوال عدّة، والذي يبدو لي أنّ ذلك يرجع إلى سببين، أحدهما: ضحكت سرورًا بزوال سبب الخيفة عن زوجها، لأنّها كانت خائفة عليه، والآخر: هي بشارتهم لزوجها بأنّ الله سيرزقه بولد عليم، وقد فهمت من هذه البشارة أنّها بشارة لها[٤]، ولمّا كانت هذه البشارة لزوجها تحتمل أن يكون الولد منها، أو من غيرها؛ لذا وجّهت البشارة لها أيضًا، قال تعالى: ﴿ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ ﴾، قال البيضاوي: «وتوجيه البشارة إليها للدلالة على أنّ الولد المبشر به يكون منها لا من هاجر ولأنّها كانت عقيمة حريصة على الولد»[٥]، بل زادت الملائكة في البشارة لها قال

(١) التبيان في إعراب القرآن: ٢: ٧٠٥.
(٢) البحر المحيط:٦: ١٨١.
(٣) جامع البيان:١٥: ٣٨٩.
(٤) وينظر: جامع البيان:١٥: ٣٩٢، والكشاف:. ومفاتيح الغيب:١٨: ٣٧٤.
(٥) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى:٦٨٥هـ)، تح: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ه:٣: ١٤١.

تعالى: ﴿ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴾، قال ابن عاشور: «زيادة في البشرى. والتعجيب بأن يولد لها ابن ويعيش وتعيش هي حتى يولد لابنها ابن وذلك أدخل في العجب لأنّ شأن أبناء الشيوخ أن يكونوا مهزولين لا يعيشون غالبًا إلّا معلولين، ولا يولد لهم في الأكثر؛ ولأنّ شأن الشيوخ الذين يولد لهم أن لا يدركوا يفع أولادهم بله أولاد أولادهم»[1].

ج- بعد معرفة إبراهيمعليه السلام، بمهمة الرسل وبشارته بالولد وحكاية حال زوجه المرافقة لذلك ومن ثَمّ بشارتها بإسحاق ومن بعده يعقوب، ولقائل يقول ماذا فعلت؟ وجوابه في آية الذاريات، قال تعالى: ﴿ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ﴾. «والإقبال: التوجه نحو القبل كالاستقبال»[2]، قال الفراء: «لم تقبل من موضع إلى موضع إنَّما هُوَ، كقولك: أقبل يشتمني»[3]، والمعنى: أنّها بعد البشارة استدارت بوجهها نحو الأضياف مستقبلة لهم بردّة فعلها، لكن كيف كان حالها عند الإقبال؟ قال تعالى: ﴿ فِي صَرَّةٖ ﴾ «في صيحة»[4]، أي: صائحة بشدّة[5]، ﴿ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا ﴾ أي: لطمت وجهها بكفيها[6]، قال ابن فارس: صكّ: «أصل يدل على تلاقي شيئين بقوة وشدّة»[7]، ومعنى ذلك أنّ الخبر كان وقعه شديدًا عليها، ثم إنّها بعد حالها

(١) التحرير والتنوير:١٢: ١١٩
(٢) المفردات:٦٥٣.
(٣) معاني القرآن:٣: ٨٧.
(٤) تفسير مجاهد: أبو الحجاج مجاهد بن جبر التابعي المكي القرشي المخزومي (المتوفى:١٠٤هـ)، المحقق: محمد عبد السلام أبو النيل، دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م:٦٢٠، وينظر جامع البيان:٢٢: ٤٢٦.
(٥) ينظر: مجاز القرآن: أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمى البصري (المتوفى:٢٠٩هـ)، المحقق: محمد فواد سزگين، مكتبة الخانجى، القاهرة-مصر، الطبعة: الأولى، ١٣٨١ه:٢: ٢٢٧، وتفسير الجلالين: لجلال الدين محمد بن أحمد المحلي (المتوفى:٨٦٤هـ) وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (المتوفى:٩١١هـ)، دار الحديث، القاهرة، الطبعة: الأولى، د.ت:٦٩٤.
(٦) ينظر: جامع البيان:٢٢: ٤٢٧.
(٧) معجم المقاييس:٥٦٢.

هذا من تلقيها للخبر قالت كما جاء في آية هود: ﴿ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ﴾. وقالت في آية الذاريات: ﴿ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ﴾، والسبب في ذلك أنّه لم يذكر بشارتها لها بالولد فناسب ذكر لفظ(عقيم)، أمّا في آية هود فقد ذكر بشارتها بالولد؛ لذا لم يناسب ذكر لفظ(عقيم)، فيكون معنى الآيتين: قالت يا ويلتا أألد وأنا عجوز عقيم وهذا بعلي شيخا إنّ هذا لشيء عجيب.

د- بعد مقالتها التي وصفت لنا حالها وتعجبها أجابتها الملائكة إجابة ذُكرت في آيتين، قال تعالى في آية هود: ﴿ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴾. وقال تعالى في آية الذاريات: ﴿ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ والتكامل بينها بعد مراعاة أسبقية النزول لسورة هود هو أنهم قالوا: أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

٢. حال إبراهيم عليه السلام بعد البشارة:

بعد أن قالت الملائكة لإبراهيم عليه السلام في آية هود: ﴿ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ﴾ وفي آية الحجر: ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴾، قال لهم: ﴿ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾، قال مجاهد: «عجب من كبره وكبر امرأته»[1]، قال الآلوسي: «وكأن مقصده عليه السلام استعظام نعمته تعالى عليه في ضمن التعجب العادي المبني على سنة الله تعالى المسلوكة فيما بين عباده جلّ وعلا لا استبعاد ذلك بالنسبة إلى قدرته جل جلاله»[2]، وقال سيد قطب: «إنّ الألفة والعادة تقيدان الإدراك البشري، وتحدان من

(١) تفسير مجاهد:٤١٦، وينظر: جامع البيان:١٧: ١١٣.
(٢) روح المعاني:٧: ٣٠٦.

تصوراته فيدهش إذ يرى ما يخالف المألوف له، ويعجب كيف يكون»[1]، فقالت الملائكة له: ﴿ بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴾، أي: «اليائسين»[2]، فقال إبراهيم عليه السلام للملائكة: ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾.

معنى التكامل السياقي للمقطع الخامس: في الآيات كان على النحو الآتي: بعد أن قالت له الملائكة لا تخف استوجب عليها أن تكشف عن حقيقة مجيئها إليه والمهمة التي أُرسلوا بها فقالوا (إنّا نبشرك بغلام عليم) أي: بشروه بإسحاق نبيًّا (وإنّا أُرسلنا إلى قوم لوط) أي: لإهلاك قريتهم (وامرأته قائمة) أي: زوج إبراهيم كان حالها وقت بشارته قائمة تسمع (فضحكت) أي: سرورًا بتلك البشارة التي ستذهب الخوف عن إبراهيم (فبشرناها بإسحاق) أي: بشرناها كما بشرنا زوجها ولتعلم أنّ الولد منها (ومن وراء إسحاق يعقوب) أي: زيادة في البشارة (فأقبلت) أي: أدارت وجهها تجاه الملائكة، وهنا أصبحت المحاورة جامعة أي: أن بعض الملائكة يحاور إبراهيم وبعضهم يحاور امرأته في الوقت نفسه.

محاورة الملائكة مع امرأة إبراهيم بعد بشارتها: وكان إقبالها (في صرة) أي: صائحة (فصكت وجهها) أي: لطمت وجهها بكفيها (قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز عقيم وهذا بعلي شيخا إنّ هذا لشيءٌ عجيب* قالوا أتعجبين من أمر الله كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم* رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد).

محاورة الملائكة مع إبراهيم بعد البشارة: قال إبراهيم للملائكة (أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون*) فأجابته الملائكة (قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب، دار الشروق، القاهرة-مصر، ط/ ٣٤، ١٤٢٥ه-٢٠٠٤م:٦: ٣٣٨٣.
(٢) غريب القرآن: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى:٢٧٦هـ)، المحقق: سعيد اللحام، د.ن، د.ت:٢٠٣.

القانطين*) ردّ عليهم (قال ومن يقنط من رحمة ربّه إلّا الضالون).

تصور تكامل الآيات قبل تفرقها: ((إنّا نبشرك بغلام عليم* وإنّا أُرسلنا إلى قوم لوط* وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب* فأقبلت فصكت وجهها قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز عقيم وهذا بعلي شيخا إنّ هذا لشيءٌ عجيب* قالوا أتعجبين من أمر الله كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم* رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد* وقال إبراهيم للملائكة أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون*قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين* قال ومن يقنط من رحمة ربّه إلّا الضالون)).

المطلب السادس: المقطع السادس: مجادلة إبراهيمعليه السلام **الملائكة في قوم لوط:**

في هذا المقطع يحاور إبراهيم الملائكة بما أخبروه به من أنّهم رُسل الله لإهلاك قوم لوط وجاءت هذه المحاورة بعد أن ذهب الخوف عنه عليه السلام ووردت هذه المحاورة في سور القصة الثلاث، ومعها آية العنكبوت، وهي على النحو الآتي:

- ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [هود:٧٤-٧٦].

- ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الحجر:٥٧-٦٠].

- ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ ﴾

[الذاريات:٣١-٣٧].

- ﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ [العنكبوت:٣٢].

وتضمنت الآيات المعاني الآتية:

-1 ١. يبدأ هذا المقطع من سورة هود بقوله:﴿ فَلَمَّا ﴾ وهي ظرف زمان بمعنى حين[١]، وكأنّ الظرف يوحي بأنّ سيدنا إبراهيم قد استغرق وقتًا حتى ذهب الروع عن نفسه؛ لأنّ محل الروع النفس[٢]، أي: أنّ الخوف الذي حدث له كان قد استقرّ في نفسه، والخوف إذا استقر في النفس روّعها، ومن ثَمَّ جادل في إمر قوم لوط، قال تعالى:﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴾.

٢. لم تبين آية هود مجادلة إبراهيم للملائكة في أمر قوم لوط، وقد بيّنتها آيتا الحجر والذاريات، قال الفراء: «وجداله إيَّاهم أنَّهُ حين ذهب عنه الخوف قَالَ: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾»[٣]، فأجابته الملائكة:﴿ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾. أي: أُرسلنا إلى قوم لوط، وكأنّه قال لهم بأي أمر أُرسلتم، فجاء بيان ذلك في آية الذاريات، قالوا:﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾، في هذا الجزء من المقطع يستشعر إبراهيم خوفه على ابن أخيه لوط، الذي لم تبيّنه سور القصة الثلاث الرئيسة، وبيّنته آية سورة العنكبوت، فقال سيدنا إبراهيمعليه السلام لهم:﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ ﴾ فأجابوه:﴿ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ ﴾، عندها قالت الملائكة تعقيبًا على حرصه على ابن أخيه سيدنا لوطعليه السلام وأهله الذي بيّنته آية هود:﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾، ثم

(١) ينظر: التبيان في إعراب القرآن:١: ٣٣.
(٢) ينظر: الدر المصون:٦: ٣٥٩.
(٣) معاني القرآن:٢: ٢٣.

قالت له حاثّة له على ترك المجادلة، قال تعالى حكاية عنهم: ﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴾ .

2- بعد أن بيّنت آية هود أنّ العذاب واقع بقوم لوط لا محالة وكان إبراهيمعليه السلام من قبل قد جادل في أمر لوط وخوفه عليه وقد أُخبر كما جاء آية العنكبوت: ﴿ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ ﴾، إلّا أنّ الملائكة تعلم حرص إبراهيمعليه السلام على لوطعليه السلام فأخبرته بنجاته وأهله، فجاء الخبر في ثلاث سور: الحجر، والذاريات، والعنكبوت، إلّا أنّ القرآن الكريم تفنن في عرضه وذلك بحسب السياق الذي ذكر فيه الخبر:

- ففي سورة الحجر بيّنت الملائكة نجاة آل لوط فقالت: ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٥٩ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴾ أي: أنّ الملائكة استثنت آل لوط من القوم المجرمين فالاستثناء هاهنا منقطع، والمعنى: «لكن آل لوطٍ مُنَجُّوهم»[1]، أمّا في العنكبوت فقد قالت الملائكة: ﴿ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ ﴾ والآيتان تدلان على نجاة لوط وأهل بيته، لكن الفرق بين التعبيرين أنّه لما لم يجرِ ذكر للوط وأهله في آية الحجر وأنّ الملائكة بيّنوا أنّهم أرسلوا إلى قوم مجرمين؛ لذا جاء الاستثناء ليدل على نجاتهم بصورة واضحة، فذكروهم باسمهم (آل لوط)، أمّا في آية العنكبوت فقالوا: ﴿ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ ﴾ والضمير عائد على لوط الذي ذكر قبل في سياق الآية: ﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ ﴾ وعطف عليه أهله لأنّه لم يجرِ لهم ذكر في سياق الآية، وكلا الخبرين أُكِّد، ففي الحجر أُكّد بـ(إنّ)، واللام، المزحلقة، وبقوله: ﴿ أَجۡمَعِينَ ﴾، وفي العنكبوت باللام الموطئة للقسم، ونون التوكيد الثقيلة، ثم إنّ كِلا الخبرين استثنى امرأة لوط من أهل بيته، قال تعالى في الحجر:

(١) وقيل الاستثناء متصلٍ، والمعنى: «أرسلنا إلى قوم «أَجْرَموا كلُّهم إلا آلَ لوطٍ فإنهم لم يُجْرموا، ويكونُ قولُه ﴿ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ ﴾ استئناف إخبارٍ بنجاتهم لكونِهم لم يُجْرِموا»، الدر المصون:٧: ١٦٨، وينظرَ: الكشاف:٥٦٢.

﴿ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴾. وقال تعالى في العنكبوت: ﴿ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴾. أي: من الباقين في العذاب[1].

- أمّا آية الذاريات فقد بيّنت نجاة آل لوط بقوله تعالى: ﴿ فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ وجاء التعبير بقوله: ﴿ فَأَخۡرَجۡنَا ﴾ مناسبًا لسباق سياق الآية الذي يخبر عن قرب نزول العذاب على القرية فالخروج من القرية قبل نزول العذاب نجاة منه، ولم يذكر السياق لوطًا وأهل بيته باسمهم المفهوم من سياق آية الحجر التي هي أسبق بالنزول، وإنّما سماهم بـ﴿ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾. وبـ﴿ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾، والسبب في ذلك أنّ الإيمان الحق، والإسلام الصادق مانع من العذاب، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[2].

- ثم ختم القصة بآية الذاريات بقوله تعالى: ﴿ وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴾

التكامل السياقي للمقطع السادس: في الآيات أعلاه كان على النحو الآتي: (فلمّا) أي: تطلب ذلك وقتًا حتى (ذهب عن إبراهيم الروع) أي: الخوف (وجاءته البشرى يُجادلنا في قوم لوط) أي: قائلًا لهم (فما خطبكم أيّها المرسلون) أي: بأي شيء أرسلتم إليهم (قالوا إنّا أرسلنا إلى قوم مجرمين) ثم قال لهم مُنبهًا (إنّ فيها لوطا) فأجابوه (قالوا نحن أعلم بمن فيها) ثم قالت الملائكة له (يا إبراهيم أعرض عن هذا إنّه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود) وأخبرته بنجاة آل لوط من هذا العذاب ليطمئنّ فقالت له (إلّا آل لوط إنّا لمنجوهم أجمعين إلّا امرأته قدرنا إنّها لمن الغابرين وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم).

(١) ينظر: جامع البيان:١٢: ٥٥٣، وينظر: مقاييس اللغة:٨١٠.
(٢) سورة يونس:١٠٣.

تصور تكامل الآيات قبل تفرقها: ((فلمّا ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يُجادلنا في قوم لوط* قال فما خطبكم أيّها المرسلون* قالوا إنّا أرسلنا إلى قوم مجرمين* قال إنّ فيها لوطا* قالوا نحن أعلم بمن فيها* إنّ إبراهيم لحليم أواه منيب* يا إبراهيم أعرض عن هذا إنّه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود* إلّا آل لوط إنّا لمنجوهم أجمعين* إلّا امرأته قدرنا إنّها لمن الغابرين* وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم)).

المطلب السابع: التكامل السياقي لمقاطع القصة كاملة قبل تفرقها:

((هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين* نبِّئ عبادي به لقد جاءته رسلنا بالبشرى* إذ دخلوا عليه فقالوا سلامًا قال سلام قوم منكرون* إنّا منكم وجلون* قالوا لا توجل فراغ إلى أهله فما لبث أن جاء بعجل حنيذ سمين*فقربه إليهم فلما رأى أيدهم لا تصل إليه نكرهم قال ألَا تأكلون* فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنّا نبشرك بغلام عليم* إنّا أُرسلنا إلى قوم لوط وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب* فأقبلت فصكت وجهها قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز عقيم وهذا بعلي شيخا إنّ هذا لشيءٌ عجيب* قالوا أتعجبين من أمر الله كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم* رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد* وقال إبراهيم أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون* قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين* قال ومن يقنط من رحمة ربّه إلّا الضالون* فلمّا ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يُجادلنا في قوم لوط* قال فما خطبكم أيّها المرسلون* قالوا إنّا أرسلنا إلى قوم مجرمين* قال إنّ فيها لوطا* قالوا نحن أعلم بمن فيها* إنّ إبراهيم لحليم أواه منيب* يا إبراهيم أعرض عن هذا إنّه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود* إلّا آل لوط إنّا

لمنجوهم أجمعين* إلّا امرأته قدرنا إنّها لمن الغابرين* وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم*)).

الخاتمة وأبرز النتائج والتوصيات

الحمدُ لله ربِّ العالمينِ، والصلاةُ والسلامُ على خاتمِ النَّبيِّينَ والمُرسلينَ محمدٍ ﷺ، وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين.

وبعد... فقد أظهر البحث النتائج الآتية:

1- إنّ التكامل السياقي يساعد كثيرًا في الكشف عن المعاني المخبوءة، ويزيد من إيضاحها.

2- دلّ التكامل السياقي عند إجرائه على بعض من أسرار الإعجاز، ومن ثم يحقّ للباحثين دراسته على وفق صورته الجديدة لاستخراج أسرار أخرى.

3- إنّ أوّل آيات القصة هي في أوّل القصة التي في سورة الذاريات، علمًا أنها متأخرة عن سورة هود، والحجر في ترتيب النزول، والمصحف، والتكامل السياقي هو الذي حدد موقعها، وكذلك بيّن ترتيب آيات القصة على وفق معانيها المرادة.

4- تبيّن الفرق بين الوجل هو: استشعار الخوف، وبين الوجس وهو: الدخول في الخوف، خلافًا لما ذهب إليه كثير من المفسرين من تفسير إحداهما بالأخرى.

5- إنّ مدلول الإنكار الذي صدر عن سيدنا إبراهيم في قوله تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴾ في الذاريات، مختلف عن مدلول الإنكار في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ ﴾ في هود، ولم يتنبه إليه من المفسرين سوى الآلوسي(رحمه الله) فجاء هذا التكامل السياقي مؤيدًا له.

6- قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴾، لم يكن عقب قوله: ﴿ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ ﴾، كما هو متبادر عند قراءة القصة في سورة الذاريات، وإنّما سبقه قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ ﴾ الذي جاء في سورة هود؛ إذ لو كان عقبه لجاء بـ(فاء التعقيب)

ولقال: (فقربه إليهم فقال ألَا تأكلون)، فدلّ على أنّ هناك كلامًا محذوفًا أرشدنا إليه التكامل السياقي.

-7 دلّ قوله تعالى﴿ فَلَمَّا ﴾، في قوله: ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ ﴾، وقوله: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ ﴾ اللّذين ذكرا في سورة هود على وجود كلام محذوف لأنّ ظرف الزمان يستغرق زمنًا، ففي الآية الأولى: استغرق وقتًا حتى تأكد ثم نكرهم، والثانية: استغرق وقتًا حتى هدأت نفسه وذهب الخوف عنه، دلّنا على ذلك التكامل السياقي.

-8 بيّن التكامل السياقي على الدقّة القرآنية في استعمال أدوات العطف (الواو)، و(الفاء) أو تركها، وكذلك استئناف الكلام بـ(إنّ)، و(الواو)، فضلًا عن ترابط المعنى.

-9 دلّ التكامل السياقي على أنّ الحديث بعد البشارة أصبح مشتركًا بين إبراهيم وزوجه من جهة والملائكة من جهة أخرى، أي: أنّ قسمًا من الملائكة يكلم امرأة إبراهيم، وقسمًا آخر يكلم إبراهيم. وما ذلك إلّا بسبب وقع خبر البشارة المعجز الذي جاءت به الملائكة، وكذلك ما سبقه من الخوف منهم، فهما وقعا تحت نقيضين فولد ذلك اضطرابًا شديدًا في نفس كل منهما فجعلهما يتحدثان في وقت واحد.

-10 زاد التكامل السياقي في إيضاح آداب الضيافة التي تضمنتها القصة بل أرشد إلى الطريقة المثلى في قِرى الضيف، وفي القصة إشارة إلى أنّ إكرام الضيف مستدعٍ إلى كرم كبير من الله تعالى على عباده؛ إذ البشارة بالولد جاءت بعد أداء واجب الضيافة (والله أعلم).

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين في البدء والختام

المصادر والمراجع

- بعد القرآن.

١. أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى:٦٨٥هـ)، تح: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ه.

٢. البحر المحيط في التفسير: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن حيان الأندلسي (المتوفى:٧٤٥هـ)، تح: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ط/ ١، ١٤٢٠ه.

٣. البرهان في علوم القرآن: لبدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي (ت٧٩٤هـ)، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، دار الفكر، بيروت-لبنان، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٥م.

٤. البيان في عدّ آي القرآن: عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الداني (ت:٤٤٤هـ)، تح: غانم قدوري، مركز المخطوطات، الكويت، ط/ ١، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

٥. التبيان في إعراب القرآن: أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري (المتوفى:٦١٦هـ)، المحقق: علي محمد البجاوي، عيسى البابي الحلبي وشركاه، د.ت.

٦. التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون، تونس، د.ت.

٧. تفسير الجلالين: لجلال الدين محمد بن أحمد المحلي (المتوفى:٨٦٤هـ) وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (المتوفى:٩١١هـ)، دار الحديث، القاهرة، الطبعة: الأولى، د.ت.

٨. تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (المتوفى:٧٧٤هـ)، المحقق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة:

الثانية، ١٤٢٠ه-١٩٩٩م.

٩. تفسير مجاهد: أبو الحجاج مجاهد بن جبر التابعي المكي القرشي المخزومي (المتوفى:١٠٤هـ)، المحقق: محمد عبد السلام أبو النيل، دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م.

١٠. التكامل السياقي (دلالة وتفسير): دار عمار، عمان-الأردن، عبدالوهاب رشيد صالح أبو صفية، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م.

١١. التكامل السياقي في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق: طه سبتي إبراهيم، مجلة الأستاذ، ملحق العدد:٢٢٦ المجلد:٢، لسنة٢٠١٨م.

١٢. تهذيب اللغة: محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى:٣٧٠هـ)، المحقق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م.

١٣. جامع البيان عن تأويل آي القرآن: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب، أبو جعفر الطبري (المتوفى:٣١٠هـ)، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، الطبعة/ ١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

١٤. الجدول في إعراب القرآن الكريم: محمود بن عبد الرحيم صافي (المتوفى:١٣٧٦هـ)، دار الرشيد، دمشق-سوريا، مؤسسة الإيمان، بيروت-لبنان، الطبعة: الرابعة، ١٤١٨ه.

١٥. جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين (ابن قيم الجوزية) (المتوفى:٧٥١هـ)، المحقق: شعيب الأرناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط، دار العروبة، الكويت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ه- ١٩٨٧م.

١٦. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى:١٢٧٠هـ)، المحقق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.

١٧. شذا العرف في فن الصرف: أحمد بن محمد الحملاوي (المتوفى:١٣٥١هـ)، المحقق: نصر الله عبد الرحمن نصر الله، مكتبة الرشد الرياض، د.ت.

١٨. الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية): لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري (ت٣٩٨هـ)، تحقيق: محمد محمد تامر، دار الحديث، القاهرة، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.

١٩. عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (المتوفى:٧٥٦هـ)، المحقق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

٢٠. غريب القرآن: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى:٢٧٦هـ)، المحقق: سعيد اللحام، د.ن، د.ت.

٢١. الفروق اللُّغوية: لأبي هلال الحسن بن عبدالله العسكري (ت٤٠٠هـ)، دار الكتب العلمية، تح: محمد باسل عيون السعود، بيروت-لبنان، ٢٠٠٩م.

٢٢. في ظلال القرآن: سيد قطب، دار الشروق، القاهرة-مصر، ط/ ٣٤، ١٤٢٥ه-٢٠٠٤م.

٢٣. كتاب العين: لأبي عبدالرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو الفراهيدي (ت١٧٠هـ)، تحقيق: د.مهدي المخزومي، د.إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، د.ت.

٢٤. الكتاب: عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه (المتوفى:١٨٠هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة-مصر، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨ه-١٩٨٨م.

٢٥. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٣٨هـ)، تحقيق: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت – لبنان، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

٢٦. الكليات: لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي (ت١٠٩٤هـ)، تحقيق: د. عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ط/ ٢، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

٢٧. مجاز القرآن: أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمى البصري (المتوفى:٢٠٩هـ)، المحقق: محمد فواد سزگين، مكتبة الخانجى، القاهرة-مصر، الطبعة: الأولى، ١٣٨١ه.

٢٨. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: لأبي محمد عبدالحق بن عطية الأندلسي (ت٥٤١هـ)، دار ابن حزم، بيروت – لبنان، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.

٢٩. مَصَاعِدُ النَّظَرِ للإِشْرَافِ عَلَى مَقَاصِدِ السِّوَرِ: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى:٨٨٥هـ)، مكتبة المعارف، الرياض-السعودية، الطبعة: الأولى ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.

٣٠. معارج التفكر ودقائق التدبر: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق-سوريا، الطبعة: الثانية، ١٤٣٥ه-٢٠١٤م.

٣١. معالم التنزيل في تفسير القرآن: أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفى:٥١٠هـ)، تح: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، ط/ ١، ١٤٢٠ه.

٣٢. معاني القرآن: أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الفراء (المتوفى:٢٠٧هـ)، المحقق: أحمد يوسف النجاتي، ومحمد علي النجار، وعبد الفتاح إسماعيل الشلبي، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، الطبعة: الأولى، د.ت.

٣٣. المعجم الاشتقاقي المؤصّل لألفاظ القرآن: لمحمد حسن حسن جبل، مكتبة الآداب، القاهرة-مصر، ٢٠١٠م.

٣٤. معجم المقاييس في اللغة: لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت٣٩٥هـ)، حققه: شهاب الدين أبو عمرو، دار الفكر، بيروت - لبنان، د.ت.

٣٥. مفاتيح الغيب (التفسير الكبير): أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى:٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٠ه.

٣٦. مفردات ألفاظ القرآن: الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، توفي بحدود (٤٢٥هـ)، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، ط/٣، دمشق-سوريا، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.